فوجئ الإسلاميون بحالة العداء الشديد التي واجهتهم بها الجماهير في مصر إبان حكمهم، وحالة الانقلاب المجتمعي عليهم، وظهرت حالة من الانقسام المجتمعي الخطير المهدد لوحدة الدولة، ولم يستطع الإسلاميون تحليل هذه الأحداث والتطورات لأسباب تعود إلى تكوينهم الفكري وتأهيلهم المعرفي أولاً وإلى حالة الصراع على السلطة مع الضبابية السائدة على المشهد وعدم تحديد العدو بشكل صحيح، وفي خضم هذه الأمواج الهائلة من العداوة والحشد الجماهيري ضد الإسلاميين التي وصلت للذروة في يونيو ٢٠١٣ كان الانقلاب العسكري في ٣ يوليو ٢٠١٣.

كان تحليل الإسلاميين أن الوصول إلى هذه الحالة العدائية كان بسبب الهجوم الإعلامي الكاسح للأذرع الإعلامية للمجلس العسكري، ومعلوم أن هذه الظواهر السياسية والاجتماعية لا يمكن تفسيرها في إطار سبب وحيد، فالظواهر السياسية والاجتماعية من التعقيد بمكان ما لا يسمح بهذا التبسيط في التفسير والرؤية.

وأنا هنا لا أهوّن من دور وسائل الإعلام في حدوث هذه الحالة العدائية، ولكن لا بد من التوقف لمعرفة مدى تأثير الإعلام على توجهات الجماهير حتى تقدر الأمور بأقدارها وتعرف مدى تأثير هذا "**المتغير**" الذي هو "**الإعلام**" في إيجاد هذا التغير الجماهيري على الإسلاميين.

إن ما يقوم به الإعلام من خلال ما يسمى « **الاتصال الإقناعي** » والتي تتمثل في ثلاثة أنواع من النتائج السلوكية تنتج عن العملية الإقناعية على النحو التالي :

١) **الإقناع وعملية تكوين الاستجابات:** مثل الطفل مثلاً الذي لا يوجد لديه مستودع للاستجابات للتعامل مع الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وهنا يقوم التعليم والنشأة بعملية تكوين الاستجابات.

٢) **الإقناع وعملية تدعيم الاستجابات:** وهنا ينجح الإعلام في الوظيفة الخاصة به بتدعيم الاستجابات التي أقنع الجمهور بها ليجعله أكثر مقاومة للتغيير.

٣) **الإقناع وعملية تغيير الاستجابات:** وهنا لا ينجح الإعلام إلا في إحداث تغيير طفيف في السلوك لدى بعض الأفراد نظرًا لوجود استعدادات سابقة متعارضة أو الانتماء إلى جماعات تتصارع أساليبها ويفشل الإعلام ويواجه مقاومة لمحاولة تغيير الاستجابات في حالة ما إذا كانت تلك الموضوعات متصلة بتصوراتهم الذاتية وتوازنهم النفسي.

ملخص ما سبق أن الإعلام له دور محدود في تكوين الاستجابات إلا إذا قدم المنتَج الإعلامي في شكل تعليمي، وبالتالي فتكوين الاستجابات المختلفة للشخص تقوم به أساسًا التعليم والتنشئة الاجتماعية، وللإعلام دور كبير في تدعيم الاستجابات التي تم الإقناع بها سابقًا من خلال التنشئة والتعليم، والإعلام له دور محدود في تغيير الاستجابات، وخاصة عندما يكون هناك استجابات لدى الشخص متعارضة مع الرسالة الإعلامية المقدَمة، وينتج من كل ما سبق أن ما يحدثه الإعلام من التأثير في المواقف والاتجاهات يعتمد على وجود استجابات سابقة متكونة في الشخصية المستهدفة متوافقة مع الخطاب الإعلامي الموجه، وإذا نظرنا للواقع نجد أن الجماهير في مصر لم تكن كلها ذات مواقف معادية للإسلاميين أصالة، وإنما هذا لدى قلة من الذين اتخذوا موقفًا مبدئيًا تجاه الإسلاميين ونستطيع أن نقول إن تلك الفئة هي التي رفضت **ثورة ٢٥ يناير** بالأساس، ويمكن أن نقسم الجماهير في مصر إلى ٣ فئات:

١. فئة مؤيدي الإسلاميين.
٢. فئة كارهي التيار الإسلامي.
٣. فئة لا تؤيد ولا تعادي التيار الإسلامي،

ولكنها تريد تحسّن الأحوال في الدولة ولا يهمها كثيرًا على يد من هذا الإصلاح

وبالتالي فالإعلام في الحقيقة لم يؤثر إلا في"فئة كارهي التيار الإسلامي" ولقد بينت الأحداث أنهم قلة، وهم الذين ما يزالون يؤيدون الانقلاب وقائده حتى الآن، ولكن حالة العداء والهياج العام شملت طوائف لم تكن لديها استجابات عدائية للإسلاميين.

والتحليل السابق يوضح بجلاء أن القول بأن الإعلام هو المتسبب الرئيسي لما حدث لا يكفي وحده لتحليل هذه الظاهرة وتفسيرها وبالتالي إعطاء تصور لعلاجها والتعامل معها.

وهذا ما يجعلنا نضع الأمور في نصابها، وهو أن الأنشطة التي قامت بها وسائل الإعلام لا تدخل في إطار "**الإعلام**" وإنما تدخل في إطار "**الدعاية**"، والدعاية هي نوع من الاتصال التحيزي الذي يعمد إلى عرض معلومات تهدف في المقام الأول التأثير على الجمهور المستهدف لإحداث تغيير في موقفه تجاه موضوع ما بما يتوافق كليًا أو جزئيًا مع أهداف سياسية للجهة القائمة على الدعاية.

وتقوم الدعاية على تكتيل القوى العاطفية بما يسمح بتسهيل الإقناع بفكرة أو مبدأ لم يكن الإنسان يقتنع به بمنطقه الذاتي دون هذا الضغط المعنوي والتوجيه الفكري.

وتتمثل الدعاية أساسًا في الجهود المبذولة لتغيير صورة الواقع من الناحية العاطفية والإدراكية التي تَصوَرها بعض أو كل المستهدفين بالدعاية وهي تحدِث أثرها بشكل تراكمي، حيث تهدف في البداية إلى الاستحواذ على اهتمام الأفراد لتقبل وجهات نظر معينة ثم التأثير على الرأي العام ومن ثم توجيه سلوكه، فهي تعمد إلى إثارة العواطف والمشاعر وتحدث حالة من الضغط الفكري والمعنوي أو التشتت الذهني، قبل أن تصل إلى مرحلة الإقناع أو التبني للفكرة، وهي تستخدم الرمز والكلمة والإشارة والصورة،

وتلجأ الدعاية إلى النمط التكراري والمتنوع للتأثير على الجمهور وتحقق أهدافها، وقد تتضمن الدعاية عرض بعض أو كثير من الحقائق لكن بصورة منقوصة أو مشوهة، وغالبًا ما يلجأ القائمون بالدعاية للكذب والتمويه لتقديم صورة مشوهة بما يخدم الهدف [١].

بقيت هنا نقطه مهمة يلزم التأكيد عليها، وهي أن الدعاية السياسية الموجهة قد لا تحقق أهدافها إلا إذا كان النظام السياسي القائم المستهدَف نظامًا يفتقر إلى الشرعية أو لا يملك أسباب القوة والبقاء.

ولقد فعلت هذه الآلة الدعائية الضخمة الكثير، فقد حفرت في أعماق "**الجماهير**" انعطافات وتحولات خطيرة في "نفسية" قطاع كبير من الناس في مصر و"سلوكه"، كان من أخطر ما قامت به الآلة الدعائية للانقلاب هو إنتاج اللامبالاة الأخلاقية و"العمى الأخلاقي" و"نزع الوازع الأخلاقي ضد العدوان والقتل" وهناك أقصد فقط الأخلاق التي تفرضها الشريعة بل حتى الإحساس الإنساني بالرأفة تجاه الفظائع العدوانية، كيف يقبل الأشخاص الأسوياء السكون أو التأييد لجرائم القتل والتعذيب !

يقول هربرت كيلمان: « **إن الوازع الأخلاقي ضد الفظائع العدوانية يميل إلى الاختفاء بمجرد تحقق ثلاثة شروط، جميعًا أو فرادى :**

١. تعويض استخدام العنف من خلال الأوامر الرسمية الصادرة من الجهات القانونية المعنية.
٢. تنميط العمل بالممارسات النظامية المنضبطة والتوزيع الدقيق للأدوار.
٣. تجريد ضحايا العنف من الصفات الإنسانية بواسطة التعريفات والمذاهب الأيديولوجية. »

---

[١] يعطي توفيق عكاشة صاحب قناة الفراعين مثال نموذجي لتطبيق الدعاية

وسنتوقف قليلاً مع الشرط الثالث المتعلق بالدعاية ثم نعود إلى الشرطين الأوليين لتعلقهما بقضية « **الدولة الحداثية** » – أي الدولة القطرية العلمانية – وتأثيراتها على المجتمعات المسلمة، لقد طرح بعض الباحثين مفهوم "عالم الالتزام" وهو عبارة عن مجموعة من الناس تربطهم التزامات متبادلة لحماية بعضهم بعضًا، وتوحدهم مرجعية واحدة.

فيشير « **عالم الالتزام** » إلى الحدود الخارجية للفضاء الاجتماعي الذي تطرح فيه القضايا الأخلاقية بأي شكل وبأي معنى، وخارج هذا العالم لا تكون الوصايا الأخلاقية ملزمة، ولا تقيم وزنًا للتعميم الأخلاقي، ولا يبقى سوى طرد الضحايا في عالم الالتزام حتى يتسنى إخفاء إنسانيتهم، فدعاية الانقلاب انطلقت في قيمة "الأمة المصرية" و"الهوية المصرية" و"المواطنون" و"المواطنون الشرفاء" و"إنتوا شعب وإحنا شعب" و"الخونة" و"أعداء مصر" وغيرها من المقولات وهي تستوجب حرمان الإسلاميين من انتمائهم لـ"مصر" والسعي في نزع الصفات الإنسانية عنهم ليتقبل الناس فكرة ذبحهم من خلال تغيير في العبارات "الخرفان" أو "أصيبوا بالجرب في رابعة لعدم الاستحمام" واتهامهم في أعراضهم "جهاد النكاح" لإزالة ما رسخ في عقول الناس من تدين هؤلاء، فهم ليسوا "متدينين" بل ليسوا "بشرًا" **ولكن كيف استجابت الجماهير إلى هذه "السلوكيات العدائية" و"الانفعال الجماعي" بهذه السهولة** وهذا السؤال يدل على عدم إدراك لطبيعة "الجماهير"، فالجماهير بطبيعتها عاطفية، لا يوجد أي عقلية لتصرفاتها وردود فعلها، همجية، تتحرك من خلال المُحرضِين المُهيجين، ونحن نتكلم هنا عن الجماهير كمجموع وليس كأفراد لأن الفرد يذوب في المجموع وينصبغ بأفكاره وسلوكياته ونستطيع أن نقول إن شخصية الفرد تنمحي حال انغماسه في جمهور معين.

فالجماهير هي الجماهير سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة أو دول العالم الثالث، وقد يقول بعضهم إن هؤلاء بينهم أشخاص أصحاب مستويات علمية عالية

كأساتذة جامعات مثلاً، وهنا لا بد أن ننتبه أن أي مُتخصص في أي علم هو من عوام الناس خارج التخصص، وطبيعة الجماهير كانت واضحة لدى السلف رحمهم الله، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: « **الناس ثلاث، عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق** »

وهذا التقسيم للمجتمع إلى نخبة موجِهة (العالم الرباني ومتعلم على سبيل النجاة) وجماهير (همج رعاع أتباع كل ناعق) موجود لدى دارس الرأي العام والدعاية والإعلام، حيث ينقسم المجتمع عندهم إلى: (**نخبة – قادة رأي – الجماهير**)

كل ما في الأمر أن الخلافة الإسلامية كانت النخبة الموجِهة للمجتمع كانت من أهل العلم الشرعي بمستوياتهم المختلفة، ولكن في ظل النظم العلمانية الحداثية التي نعيش في ظلها أصبحت النخبة الموجِهة هي المثقفين العلمانيين بمستوياتهم المختلفة.

وبالتالي فطبيعة الجماهير وتكوينها النفسي يؤهلها لقبول هذا التحريض والتهييج والشحن واللعب على أوتار العاطفة واللعب على أوتار الخوف لإيهامهم أن الخطر عليهم خطر وجود، وأن وجود الإسلاميين في السلطة هو خطر على "الوطن" وعلى أمن هذا "الوطن"، بل إن وجودهم خطر على أرزاق الناس ومعايشهم وأمنهم، فأصبح الفرد العادي يحس أنه مهدد تهديدًا ذاتيًا، وأوصلتهم الدعاية إلى أن التخلص من هؤلاء ولو بالقتل مصلحة ذاتية لكل فرد في حد ذاته.

ولكن كان هناك حاجز نفسي يمنع من إيذاء هؤلاء الإسلاميين ألا هو أن هؤلاء "متدينون" في مجتمع مسلم، فكان لا بد من نزع هذه "الهالة المقدسة" عن الإسلاميين من خلال تصيد الأخطاء لبعضهم أحيانًا، ونشر الأكاذيب عنهم في أحيان كثيرة، مما شوه صورتهم وأنزل من قدرهم عند الناس، فزالت "الهالة" وزالت هيبتهم من قلوب الناس فتجرأوا عليهم سواء أكان في المساجد أم الشوارع

أم البيوت، كل هذا في ظل حالة من التخبط يعيشـها الإسـلاميون سـواء في تحديد العدو أو تحديد ما المطلوب فعله.

وهذا المشـــهد الإســـلامي طبيعي جدًا في ظل غياب التأهيل لقيادات الحركة الإســـلامية إلى مســـتوى "**رجال دولـة**" لديهم القدرة على إدارة الدول وإدارة الصـــراعات وهنا إشـــكال يواجه من تكلم مع الجماهير حيث يواجههم بحقيقة المذابح وقد يصل الخطاب إلى القول بأنكم مسؤولون عن هذه الدماء بتأييدكم القتل فيكون الرد "نحن لم نقتل أحدًا"، بمعنى نفي المســؤولية عن القتل، وهذا ســلوك دفاعي ليس فقط للمجادلة، وإنما لمنع تأنيب الضمير على المستوى الشخصي.

ولكن كيف يفكر الناس هكذا وهنا نبتعد عن الدعاية وتأثيراتها إلى بُعد أعمق، وهو مفهوم « **وساطة الفعل** » ، وهو مفهوم طرحه جون لاكس وهو مفهوم يعني قيام شـــخص آخر أو شـــخص وســيط بأفعال تخصـــني، ويقف حائلاً بيني وبين أفعالي، فبعد أن فعلت آلة الدعاية فعلها ولعبت على أوتار العاطفة إلى أقصــــى درجة، ولعبت على أوتار الخوف على الوجود والمصـــير"طالما يعني هؤلاء في الحكم" وبالتالي طلب إزاحتهم بل قبول قتلهم وتأييد ذلك، "أفرم يا ..." "اقتل يا ..."، أصبح لزامًا أن يوجد من يقوم بفعل الذبح والقتل نيابة عن الجماهير، وعند وجود فعل القتل يرى الشـخص الذي نفذت أفعال القتل نيابة عنه وتأييده ورضـاه وتحريضه أنها محض خيال ولن يعترف بها لأنه لم يفعلها بنفسه.

حتى الشخص الذي قام بالقتل يرى نفسه مجرد أداة بريئة لأنها تخضع لإرادة غير إرادته "عبد المأمور" عندما تزداد المســـافة الفيزيائية أو النفســـية عن الفعل والعواقـب المترتبـة عليـه يحـدث تعليق للوازع الأخلاقي، وتختفي كـافـة ألوان الصراع الأخلاقي الداخلي في نفسية الفرد، وإذا أضفت إلى كل هذا ما فعلته الآلة الدعائية في تكذيب الروايات عن المذابح والمشـاهد المنقولة مباشـرة في المذابح، أدركت كيف تكونت التصورات والسلوكيات وكيف تحدث حالة الإنكار.

وما بيناه هنا يدفعنا إلى التعمق في الصورة أكثر، فتحليل الأحداث بهذه الضخامة وما نتج عنها من عواقب وخيمة على قضية الإسلام ذاتها فضلاً عما وقع على إخوانهم المسلمين من قتل وتشريد وسجن وتعذيب وتضييق، وحرب ضروس لا تفتر ليل نهار، يجعل الوقوف مع الحدث وأسبابه المباشرة – وإن كانت عميقة – غير كاف في فهم الحدث فهمًا صحيحًا وما يَسْتَتْبِع ذلك من تصور صحيح للحل.

نحن في مجتمعات تعرضت طوال مائتي عام إلى تحولات عميقة، سواء في بنية السلطة أو في بنية المجتمع أو في بنية القيم الحاكمة للمجتمع والدولة، وذلك من خلال إجراءات العلمنة التي فرضت على المجتمعات لتغيير قيم وعقائد وسلوكيات هذه المجتمعات المسلمة.

و كانت البداية مع « **الاختراق الغربي** » لبلاد المسلمين مع الغزو الفرنسي لمصر ١٧٩٨ م – ١٨٠١ م والذي أحدث صدمة حضارية شديدة على المسلمين، وحالة من الهزيمة النفسية مهدت الأرض لتقبل عملية "**التغريب**" التدريجي للمجتمعات المسلمة و الانسياب التدريجي للأفكار والأخلاق الغربية،
ولقد أرسى « **محمد علي** » أول ركيزة للعلمانية، حيث أنشأ نظاما تعليميا على غير أساس إسلامي، كما أرسى جذور نظام قضائي غير إسلامي، حيث استبعدت بعض الحدود، وكثرت اللوائح والتنظيمات المخالفة للإسلام.

إن هذه الثنائية من المؤسسات الحضارية للتعليم والقضاء قد انعكست على الأخلاق والسلوك ، وكلما كانت تزداد الفجوة اتساعا بين المؤسسات التقليدية – المنسوبة إلى الإسلام – والمؤسسات الجديدة كان التضييق يزداد على المؤسسات الإسلامية.

ومع تعمق الثنائية ضاقت سبل العيش أمام خريجي التعليم الإسلامي، بخلاف خريج الجامعة – الأفندي – الذي أصبح طبيبا أو مهندسا أو محاميا، وسخِرت وسائل الإعلام من المعممين، في نفس الوقت الذي أظهرت فيه خريج الجامعة باعتباره القدوة لبسطاء الناس.

وفي عهد كل من « **الخديوي سعيد** » و« **الخديوي إسماعيل** » تبلورت شخصية مصرية على حساب الشخصية الإسلامية، وكان هذا انحرافا خطيرا عن جادة الإسلام؛ حيث تبلورت هوية جديدة مناقضة للهوية الإسلامية، ألا وهي الهوية الوطنية،

وقد ظهرت هذه الهوية الوطنية لسببين :

١) انتشـــار الأفكار الوطنية في أوروبا بعد اجتياح نابليون لبلاد كثيرة: ثم نشـــره لأفكار الثورة الفرنسية فيها، وكان نصـارى الشـام أول من تلقوا هذه الأفكار، ودعوا إليها على أساس أن يكون لهم نصيب في أية دولة قد تنشأ على أساس الوطنية، وفي عهد سعيد وإسماعيل انفتحت أبواب مصـر أمام الشوام الذين طاردهم الحكم العثماني، فقاموا ببث سمومهم وسط المثقفين في مصر.

٢) رافد آخر للوطنية، لم يصـطدم بالدين من البداية: فقد بدأها الطهطاوي بتمييزه بين "أخوة الـدين" و"أخوة الوطن"، ثم ازدهرت الوطنيـة على يـد الأفغـاني وعبد الله النديم، ومن بعدهم مصـــطفى كامل ومحمد فريد، الذين كان لهم دور كبير في رعاية ودعم ونشـــر فكرة الوطنية، وإن كانت الوطنية عند هذه الفئة تختلف تماما عن الوطنية اليوم، بل عن الوطنية التي دعا لها الشـــوام، فقد كانت عبارة عن عاطفة و حماســـة أكثر منها فلســـفة، إنها كانت في الحقيقة فكرة غامضة.

وســـأقف مع هذا الانحراف الخطير، فتأســـيس الهوية الوطنية المناقضـــة للهوية الإســـلامية أصـــالة عند الكلام على "**الدولة الحداثية القطرية**" وتأثيراتها على المجتمع المسلم.

وكان « **الاحتلال الإنجليزي** » ذا تأثير حاسم في سيطرة "**النخبة العلمانية**" على الســـلطة والتوجيه من المجتمع ، حيث قام الاحتلال بالاعتناء بهذه النخبة، وتهيئة الظروف وتســـليمها قيادة المجتمع، حيث أعطيت لها الســـلطة – وإن كان بشـــكل منقوص، حيث إنها سلطة تحت الاحتلال – وأفسح المجال لها لتسلّم منابر التوجيه الثقافي، والتعليمي للبلاد، في الوقت الذي كان من ينسب إلى الإسلام كـــ "**الحزب الوطني**" حاصـــرته آلة الاحتلال وعملائه ســـياســـيا وقانونيا ودعائيا، رغم أن الحزب الوطني لم يفهم طبيعة وخطورة العلمانية، وحصـــر خلافه مع العلمانيين حول رفضـــه لمبدأ التفاوض مع المحتل، مما أعطى الفرصـــة للتأثيرات العلمانية

على المجتمع والدولة، سواء في الهوية أو التشريع أو الأفكار والسلوكيات، داخل المجتمع.

وعندما أتت « **حركة الجيش** » عام ١٩٥٢ م أتت بتحولين خطيرين جدا:

١) **الخصومة مع الهوية و المرجعية الإسلامية.**

٢) **ترسيخ مبدأ الحكم الاستبدادي** : وقد تبين هذا واضحا في أزمة مارس ١٩٥٤م ، ومن ثم بدأت السياسات الاشتراكية، واستخدام الإعلام والتعليم لتوجيه السيطرة على المجتمع، مما أنتج ترسيخ الأفكار والسلوكيات العلمانية في المجتمع.

و كانت فترة « **السادات** » بما شملته من علاقات مع الولايات المتحدة، وما تبع ذلك من انتشار للثقافة الأمريكية عبر الأفلام والمسلسلات ، واعتماد "**الانفتاح الاقتصادي**"، والذي وسّع من دائرة الفقر والبطالة في المجتمع، و قد كان لهذين العاملين تأثير خطير على المجتمع – كما سنبين – ، وكان للعلاقات مع إسرائيل وما استَتْبع ذلك من عملية تغيير للقيم من الوعي الجمعي للمجتمع، وخروج تام من البعد العقائدي تجاه قضية فلسطين والعداء لإسرائيل، وترويج أوهام السلام في عقول الجماهير، و قد كان لهذين التحولين في عصر السادات تأثير عميق على الأفكار والسلوكيات المجتمعية.

وكانت فترة « **مبارك** » استكمالا لما بدأه السادات، ولكن مع البطش بالإسلاميين والزج بهم في السجون، واعتماد سياسة التعذيب الممنهَج، والعودة للتشويه الإعلامي للإسلاميين عبر المسلسلات والأفلام والبرامج، ومنع وصول العلم إلى الناس و"**تجهيلهم**"، واستخدام "**مشايخ العلمانية**"؛ لإعطاء غطاء ديني للعلمانية في المجتمع والدولة، ولكن هذه السياسات العلمانية توخت أمرين في سيرها :

١) **اعتماد العلمانية الجزئية**، وليس العلمانية الشاملة.

٢) **اعتماد العلمانية المستترة**، وتجنب العلمانية الفجة، وهذا جعل هناك قبولا محققا في ظل حالة "**التجهيل**" للأفكار والسلوكيات العلمانية، وذلك لأنها لا تصطدم صراحة وبطريقة مكشوفة مع عقيدة المجتمع.

وما تفعله العلمانية الآن في ظل « **الانقلاب** » من اعتماد العلمانية الشاملة لا الجزئية والعلمانية الفجة لا المستترة هو خطأ استيراتيجي يصب في مصلحة الإسلام على المدى المتوسط والطويل؛ لأنه سيكشف أمام المجتمع اصطدام العلمانية الواضح والصراع مع عقيدة المجتمع مما يؤدي لرفض المجتمع لهذه الأفكار.

أنتجت المسيرة الطويلة للعلمنة "مائتي عام" إفرازات خطيرة في الأفكار والسلوكيات المجتمعية:

١) <u>فصل الدين عن الحياة على المستوى العملي:</u> فتجد الفرد يصلي في المسجد الصلوات الخمس، ولكنه يفصل تدينه هذا تماما عن معاملاته الحياتية سواء في التجارة أو بينه وبين أبنائه، حيث نجد هنا انفصاما تاما بين الدين والحياة، وعدم اعتماد مرجعية الإسلام في تيسير شئون حياته العملية، بل نجد ذلك واضحا في سلوكه السياسي، فهو مصل متدين، ولكنه يعادي الإسلاميين، ويؤيد العلمانيين، وما ينتج عن ذلك مما رأيناه، من رفض لتطبيق الشريعة، ومعاداة لذلك.

٢) <u>الانحراف في قضية الهوية والانتماء:</u> ففي استطلاع للرأي أجراه مركز الجزيرة للبحوث والدراسات بعد ثورة ٢٥ يناير في مصر أجاب أكثر من ٦٠٪ من العينة عن سؤال الهوية (<u>أنه مصري أولا</u>)، فالهوية الوطنية هي محورالانتماء لدى غالبية المسلمين في مصر، وهي هوية مصادمة ومناقضة للهوية الإسلامية، و<u>الهوية تُحدِد</u> **(من نحن؟)** و**(من الآخر؟)** و**(ما الموقف من الآخر؟)**، فهي محور مركزي في حياة أي إنسان وتحدد مواقفه وبوصلته واتجاهاته وسلوكياته.

٣) النفعية واعتمادها كمنهج عام للحياة: ويُقصد بالنفعية الأنانية والدوران حول المصلحة الشخصية والتحرك في إطارها، وحساب كل شيء في إطار المصلحة الذاتية الضيقة (مبدأ مصلحتي)، وهذه النفعية تفرغ الإنسان تماما من المبادئ، فيصبح إنسانا بلا مباديء، ويصبح وحشا، وليس إنسانا، حيث إنه يفقد حتى الإحساس بالآخرين أو آلامهم أو اعتبار مصالحهم، وهو ما يدخل المجتمع إلى وضع الغابة والصراع الدائم بين الوحوش حول النفوذ والمال والشهوات، وكان لهذه النفعية تأثير محوري في صراع الثورة المضادة (الاستبداد العلماني) مع الإسلاميين حيث خوطب المجتمع من خلال المصالح لا المبادئ، لأنه مجتمع مصلحي نفعي بلا مبادئ، وأجدى هذا الخطاب وأثمر ما رأيناه.

٤) الشهوانية: التي أصبحت سلوكا عاما في المجتمع يظهر بوضوح في التبرج السافر والإباحية وانتشار الحرية الجنسية، فهذه السلوكيات ليست مجرد معاص، وإنما هي سلوكيات علمانية مجتمعية قائمة على قناعة من يفعلونها، وانتشرت هذه السلوكيات من خلال الأفلام، والمسلسلات والمواقع الإباحية، فهي سياسة ممنهجة للعلمانية لإفساد المجتمع وإدخاله في آتون الشهوات.

٥) المادية: حيث أصبح مدار حياة الإنسان ودورة حياته اليومية "الجنيه" فأصبحت المادة هي القيمة المهيمنة على سعي الناس واهتمامهم وتقييمهم للأشياء والأشخاص.

هذه أمثلة لحجم التأثير العلماني على المجتمع المسلم، في الوقت الذي وَصف الإسلاميون أمراض المجتمع بعيدا عن الخلل الرئيس، وهو العلمانية والعلمنة إلى توصيفات أخرى، سواء بوصف المشكلة من "**شرك القبور**"، وتغافل تماما عن "**الشرك في الولاء والبراء**" أو "**الشرك في الحاكمية**" أو النواقض العقدية الأخرى المنتشرة في المجتمع، والناتجة كلها عن جهد العلمانية والعلمنة، أو من يوصف المشكلة على أنها "**الغفلة والمعاصي**" أو أن الإشكال "**سياسي**" ، ويغفل

تماما عن أن السلطة علمانية تقع تحت ''**الهيمنة الغربية**'' بشقيها ''**الإدراكي**'' و''**المادي**''، وأن الخلاف مع هذه السلطة ليس ''**سياسيا**'' بالدرجة الأولى، إنما هو ''**عقائدي**'' بالدرجة الأولى، وكما يغفل عن علمانية السلطة وعمالتها للغرب العلماني، يغفل كذلك عن تأثيرات العلمانية العميقة على المجتمع، ثم يسأل بعد ذلك ويقول: كيف حدث هذا؟ وكيف انقلبت علينا الجماهير، وقد كنا نعطي لهم الإعانات والمساعدات ونبذل لهم أنشطة اجتماعية لحل مشاكل الفقر والبطالة، **فكيف يخذلوننا وينقلبون علينا؟**

إنه التوصيف السطحي والتبسيطي للواقع ومتغيراته، والهروب إلى عموميات ناتجة عن الجهل وعدم التأهيل المعرفي لتوصيف الواقع، أو السعي لإصلاحه وتغييره.

إنه انعدام الرؤية للخلل الحقيقي، وعدم معرفته بأبعاد هذا الخلل وتأثيراته واتجاهه لمعالجة أشياء أخرى ليست هي الخلل، فالإسلاميون كما قيل: **« يرون ما لا يريدون، و يريدون ما لا يرون »** إنه انحراف في التصور والإدراك والفهم، ومن ثم انحراف في الحركة والعمل، ولكن يبقى هنا أن نتكلم عن الدولة ''**الحداثية القطرية**''، هذه الدولة ذات السيادة (**السيادة في هذه الدولة للدولة ذاتها، وليس شيئا آخر**) التي ادعت أنه من حقها، كجزء لا يتجزأ من سيادتها، أن ترتكب جرائم الإبادة الجماعية، أو أن ترتكب مذابح إبادة بحق شعوب تحكمها من خلال حالة الاستثناء، التي هي عملية تأسيس لحرب أهلية ''قانونية'' من خلال تطبيق حالة الاستثناء، بما يتيح التصفية الجسدية، ليس فقط للخصوم السياسيين، بل لشرائح كاملة من المواطنين تعتبرهم السلطة، لسبب أو لآخر، غير قابلين للاندماج في النظام السياسي، ومن هنا نفهم أن ما فعله أو يفعله الانقلاب هو جزء لا يتجزأ من مفهوم ''**الدولة القطرية**''. ونحن هنا سنناقش تأثير الدولة القطرية فيما نحن بصدده من تحليل سلوك الجماهير، وانقلابها على الإسلاميين، وهنا

نعود إلى ما ذكرناه عن **الشروط الثلاثة؛ لإختفاء الوازع الأخلاقي ضد الفظائع العدوانية :**

١) استخدام العنف من خلال الأوامر الرسمية الصادرة عن الجهات القانونية.
٢) تنميط العمل عبر الممارسات النظامية المنضبطة، والتوزيع الدقيق للأدوار.
٣) تجريد ضحايا العنف من الصفات الإنسانية بواسطة التعريفات والمذاهب الأيديولوجية.

والذي يهمنا هنا هو "**الانضباط المؤسسي**"، أي ضرورة الالتزام بأوامر الرؤساء إلى حد استبعاد المرجعية الأخلاقية – شرعية أو حتى إنسانية –، إضافة إلى وضع الإخلاص للمؤسسة، ونجاحها فوق كافة الاعتبارات الأخرى، وبذلك يصبح الانضباط المثالي هو التماهي الكلي مع المؤسسة، وهذا لا يعني أي شيء سوى الاستعداد لمحو إنسانية الإنسان، ومحو هويته من الوجود، واعتبار أن التضحية بالنفس من أجل المؤسسة فضيلة أخلاقية تلغي كافة الأوامر الأخلاقية الأخرى، ويصبح شرف الموظف هو التمسك بهذه الفضيلة، وبذلك أصبح الالتزام بالأوامر هو أعلى درجات الانضباط الأخلاقي.

ما نصفه هنا هو وصف "**البيروقراطية**" الحديثة التي هي منتَج رئيس للحداثة ودولتها القطرية، وهي لا توضح لنا فقط كيف نفذ المنفذون المذابح، بل إنها توضح لنا أيضا كيف قبل الآخرين – الذين لم يباشروا الذبح بأنفسهم – وأيدوا المذابح، إنها منظومة متكاملة لتذويب الإنسان من حيث هو إنسان – والمسلم من حيث هو مسلم – في إطار منظومة منزوعة القيم، و لا تعطي أي وزن لقيم شرعية أو إنسانية حتى، وانظر إلى مقولات: "**عبد المأمور**" ، "**ده شغلي وأكل عيشي**".

إنها ليست منظومة إدارية مجردة، إنها تصبغ العاملين فيها، بل المجتمع كله بطريقة تفكير تستبعد تماما "الحلال والحرام"،"الصواب والخطأ" وبالتالي فهي

تبث العمى الأخلاقي واللامبالاة الأخلاقية في أفراد المجتمع ككل، وفي نهاية المطاف، كانت هذه مقاربة لفهم وتحليل ظاهرة انقلاب الجماهير على الإسلاميين، من خلال مداخل واقترابات منهجية مختلفة حتى نصل قدر المستطاع إلى معرفة الخلل بأبعاده المختلفة، وهو خطوة رئيسة ومؤسِّسة لإعطاء تصور صحيح للإصلاح والتغيير وإعادة البناء المجتمعي، فهي كلمات للماضي والحاضر والمستقبل، « **فمن يملك الماضي يملك المستقبل** »، كما يقول جورج أورويل، وهذا اجتهادي، فإن كان صوابا فمن الله، و له الفضل و المنة أولا و آخرا، وإن كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ (هود:٨٨)

الأستاذ وائل توفيق محمد
باحث في التاريخ والحضارة
drwaeltm.blogspot.com
fb.com/drwaeltm